

فلسفة ليبنتز

Gottfried Wilhelm Leibniz

١٧١٦ - ١٦٤٦

للاستاذ زكي نجيب محمود

١ - نظرية ذرات القوة ٢ - التألف الازلي

٣ - نظرية المعرفة ٤ - الله والعالم

لست أدري كم ندنو من الحق حين نقرر أن لكل أمة طابعا في التفكير يطبع انتاجها الفكري بوجه عام ، ولولا أن ما تبادلته الاستاذ الكبير الدكتور طه حسين والاستاذ العقاد لم يحف مداده بعد . لزعمت هذا التقسيم في يقين لا يعرف الشك . ألا تتميز انجلترا بالنزعة الواقعية Realism . والمانيا بالنزعة التفكيرية Idealism ؟ أليست انجلترا مهدا للأفكار العملية التي تقف عند الواقع المحس « لا تعدوه » بل تكاد ألا تعترف بما وراءه أليست المانيا منبثا خصبا للجهود العقلية العميقة ، الذي يضرب فيما وراء الطبيعة ، ويوشك ألا يعترف لهذا العالم المادى بحقيقة أو وجود ، ثم ليست فرنسا موطننا للنزعة الرياضية ؟ ألا يتميز الرجل الانجليزي بالوضوح الذي أدى به الى التمسك بالحقائق الواقعة ، والفرنسى بالدقة التي طوحت به في بيداء اللا أدريّة والشك ، لأنه ينشد حقا يبلغ حد اليقين الرياضى فلا يجد . كما يتميز الألماني بالعمق في التفكير الذي انتهى به الى اعتبار الفكر أصلا للوجود ؟ عندي أن هذا كله حق يؤيده تاريخ الفلسفة .

ولم يكن ليبنتز فيلسوفا ألمانيا فحسب ، انما كان أب الفلسفة الألمانية الحديثة غير منازع ، أقستطيع اذن أن تصور لنفسك عمق تفكيره وامعانه في البحث عما وراء الطبيعة ؟ وقد شاء له ربك أن يكون مهبطا تجتمع عنده أطراف النقائض ، فيمثلها جميعا ، ثم يخرجها للناس فلسفة متحدة متجانسة ، فهاهو ذا قد تسلم ميراث ديكارت وسبينوزا من ناحية ، وباكون ولوك من ناحية أخرى ، فالتقت لديه بذلك سلسلتان متضاربتان من التفكير ، احدهما (ديكارت وسبينوزا) تنكر الحقائق الفردية وتؤكد قانونها الخالد : أى أن هذا الانسان المعين أو تلك الشاة أو ذلك الطائر أو ما شئت من أفراد ، ليست حقائق مقصودة لذاتها ، انما هي مجرد

تطبيق لقانون شامل ، فأما هذه الافراد فذاهبة مع الموت ، وأما ذلك القانون فخالد لا يعتريه الفناء . والأخرى (باكون ولوك) تسخر من كل هذا ، ولا تعرف الا هذه الحقائق الفردية التي نراها ونلمسها . التقى هذان المذهبان في رأس ليبنتز فوقف منهما ، موقفا وسطا ، وأخذ من كل منهما بمقدار ، ففرض أن العالم يتكون من ذرات أولية لا تقبل التجزئة وليس لها امتداد ، ثم زعم أن كل ذرة منها (يلاحظ أننا نستعمل كلمة ذرة هنا في شيء من التجوز لأن الذرة المادية تختلف عن الذرة monad التي فرضها ليبنتز في أن للاولى امتدادا وانها تقبل التجزئة ، وأما الثانية فروحية تتألف من القوة لا من المادة) حقيقة متميزة مستقلة الا أنها في الوقت نفسه تشمل صورة السكون بأسره في جوفها وتمثله أدق تمثيل . وبقدر دقتها في هذا التصوير والتمثيل يكون دنوها من الكمال . فهي فردية من ناحية وكونية من ناحية أخرى . ولا بدلنا لكي نفهم ليبنتز على حقيقته أن نتناول بالشرح نظريته في الذرات ثم فكرته في إثلافاها ، كما نلم رأيه في المعرفة وطريقة وصولها الى الذهن . وسنرى أنها محاولة أخرى للنوفيق بين ديكارت ولوك ، فقد مزج بين ما ارتآه الأول من وجود آراء فطرية تولد مع الطفل عند ولادته ولا تجيء عن طريق التحصيل ، وما ذهب اليه الثاني من أن العقل يخرج الى هذا العالم صحيفة بيضاء ثم تخط فيها التجارب ما تشاء .

١ - نظرية ذرات القوة monadology

مم تتكون أجزاء هذا الوجود ؟ مم يتكون هذا الرجل وذلك الماء وتلك القطعة من السكر ؟ يجيب ديمقريطس أن هذا الوجود على تباين ظواهره إنما يتكون من ذرات اجتمع بعضها الى بعض ، فكونت هذا الشيء أو ذاك ، وينكر ديكارت وسبينوزا هذا القول ويؤكدان أن أجزاء العالم على اختلافها إنما تتكون من مادة كونية متحدة لا تنقسم الى أجزاء لأنها عنصر أولى واحد ، ولكن ليبنتز يرد الفكرتين جميعا ، فهذه المادة الكونية التي فرضها سبينوزا شاملة للوجود تبرز السكون حقيقة واحدة تتلاشى فيها كل الحقائق الفردية التي نصادفها في الحياة العملية ، وتلك الجزئيات التي زعمها جماعة الذريين أصلا للأجسام ، لا بد أن تكون - نظريا على الأقل - قابلة للتقسيم الى ما لا نهاية ، ما دامت قطعة من المادة ، لأن الذهن لا يستطيع أن يتصور جزءا ماديا لا يقبل التجزئة ، وإذن فهي مركبة ونحن إنما نقصد الى إيجاد أبسط العناصر التي يمكن اعتبارها أصلا مطلقا للسكون . فلا بد لنا من الامعان في البحث حتى ننتهي الى

عنصر لا يقبل التجزئة ، ويكون له في الوقت نفسه وجود حقيقي ملموس . ولا تصلح النقطة الهندسية أن تكون هي العنصر المنشود . لأنها تحقق شرطاً واحداً وهو عدم قابلية التقسيم ، ولكن لا تتوفر فيها الوجود الحقيقي ، كذلك لا يجوز أن نفرض جسماً مادياً كأننا ما كان حجمه ، لأنه وإن توفر فيه الوجود الحقيقي ، لا يحقق شرط البساطة ، إذ لا يسعنا إلا أن نتصور إمكان تجزئته إلى مالا نهاية له من الأجزاء . يقدم لينز هذا الاعتراض ، ثم يزعم أن ذرات القوة هي العنصر المنشود ، لأنها موجودة لا ريب في وجودها . وليست مادية حتى تهتم بإمكان التقسيم . وهي فضلاً عن ذلك منبثة في الكون بأسره . هذه القوى الأولية monads هي التي تتكون منها حقيقة كل شيء ، فهي العنصر الذي بنيت منه المادة والروح على السواء . وهي تختلف عن المادة التي فرضها سبينوزا في أنها ذرات فردية لانهاية في عددها وطبيعتها . أما مادة سبينوزا فهي كتلة متحدة متجانسة كما تبين ذرات ديمقريطس في أنها ليست مادة متينة بل مشحونة بالحياة والحركة . وهي ليست مجرد تكرار الصورة بعينها بل متباينة مختلفة إلى أقصى حدود التباين والاختلاف في الكيف والفاعلية . حتى إنك لا تجد في الكون كله ذرتين متشابهتين ، لأنه لو كان ذلك لكان خلق أحدهما عبثاً لا مبرر له . ولهذا الذرات القوية (نسبة إلى القوة) خاصتان : فهي في آن واحد شاملة للكون ومنعزلة عنه . هي من ناحية وحدات بسيطة مستقلة وليس لها نوافذ تطل منها على العالم الخارجي أو ينفذ لها شيء منه ، لا يمكن أن توجد من عدم كما يستحيل أن تعدم بعد وجود الابرادة الله . كل واحدة منها عالم صغير يسير بمقتضى طائفة من القوانين كما لو لم يكن في الوجود غيرها سوى الله . وهي من ناحية أخرى شاملة للكون ، لأنها وإن تكن منعزلة بنفسها مستقلة في سيرها إلا أن لها من القوة ما تستطيع به أن تمثل كل ما يحتوي الكون من ذرات قوية ، أو بعبارة أخرى كل ذرة ينعكس فيها الكون كله ، بحيث لو استطعنا أن نصل إلى فهم واحدة فقد فهمنا الكون بأسره . فكل واحدة تحمل في طياتها ماضى العالم ومستقبله . ويعزو لينتز إلى هذه الذرات نوعاً من الإدراك يختلف عن إدراك الكائنات المفكرة ، أي أن هناك درجات للإدراك لا نهاية لها ، ومعنى ذلك أنه لا يعترف بوجود المادة الميتة ، إنما أجزاء المادة جميعاً ضروب من الأحياء تختلف في كمية الحيوية والتفكير . وبعبارة أخرى يقول : أن هناك درجة من الإدراك الصحيح الكامل ، ثم يأخذ هذا الإدراك في النقص والغموض كلما نزلت في سلم الكائنات ، وكلما كان إدراك الذرة واضحاً وتصويرها للكون دقيقاً ، كانت

أكثر حيوية وأحد نشاطاً ، والله تعالى هو وحده القادر على أن يكون له إدراكات واضحة لا يشوبها شيء من غموض أو ما يشبه الغموض ، واذن فهو وحده عبارة عن فاعلية خالصة ونشاط مطلق ، وكل مخلوق سواه من الإنسان فإزلاً إلى أحط الكائنات ، يكون فعالاً من ناحية ومنفعلاً من ناحية أخرى ، وهذا الجانب المنفعل من الذرة ، أي الجانب السلبي ، هو ما يسمى بالعنصر المادي . أي أن وجود المادة السلبية في الذرة القوية هو الذي يحول دون وضوح إدراكها . وبعبارة واضحة . كلما رجحت في الكائن كفة الجانب الروحي الفعال على العنصر المادي السلبي كان أكثر وضوحاً في إدراكه

وانك لترى العالم مليئاً بهذه الذرات المدركة ، كل منها مستقل منعزل . ومع ذلك لن تجد بينها فواصل تباعد بينها ، بل هي متداخلة بعضها في بعض ، متصلة على أشد ما يكون الاتصال ، وهذا ما يسميه لينتز بقانون الاستمرار . فليس ثمة تناقض أو اضطراب ، أبداً من المادة الجامدة إلى العقل المفكر تجده طريقاً واحدة متصلة يتزايد فيها الإدراك شيئاً فشيئاً في تدرج غير محسوس وسر من النبات إلى الإنسان فسترى أنك إنما تسلك سبيلاً ليس فيها حوائل أو عثرات ، بل تعلو بك قليلاً قليلاً حتى تنتهي إلى قمة الجبل دون أن تشعر بالصعود !

ويشير لينتز إلى مراحل ثلاث تحتازها في طريقك من الكائنات الدنيا إلى طبقاتها العليا . فذرات الطبقة السفلى . أي ذرات الجراد والنبات تدرك وكفى . فهي أشبه ما تكون بالأحياء الغافية أو النائمة التي لا يرتفع إدراكها إلى درجة الشعور . والمرتبة التالية لتلك هي ذرات الحيوان ، ولها فوق الإدراك ذاكرة ، ولكنها لا تسمو إلى درجة العقل ، وإدراكها شبيه بالأحلام الغامضة ، ثم تجيء الكائنات البشرية فوق تلك المرتبة ، وهي التي وهبت عقلاً وشعوراً بالذات . ويذكر لينتز أن الله تعالى هو اسمى هذه المراتب جميعاً فبينما تراها تتفاوت في إدراكها غموضاً ووضوحاً ، ترى إدراكاته سبحانه وتعالى واضحة كلها .

وليست هذه الذرات مطمئنة إلى مراتبها راضية بمقامها ، بل تسعى كل واحدة سعياً متواصلاً إلى السمو والارتفاع نحو الكمال لا ترضى به بديلاً . فهي دائبة أبداً . لا تدخر وسعاً لكي تحقق هذا الكمال الأسمى بانتقالها من مرتبة إلى مرتبة حتى تصل إلى هدفها المنشود ، وليس من شك في أن لينتز كان بذلك القول بشيراً بمذهب دارون الذي لا يعدو جوهره هذا التطور نحو السمو والكمال . (تمة المقال في العدد الآتي)